الفصل الأول

مسألة الموقف الأدونيسي من التراث

نشير إلى أن جل الانتقادات التي وجهت لموقف أدونيس من التراث كانت قد اتخذت من أطروحته في «الثابت والمتحول» بؤرة لخصام عنيف، ومن حق هذه الرسالة الفذة حول الثابت والمتحول عند العرب، أن تحرك العقول والأقلام وأن تثير جوا من التفكير الخصيب وأن يحاكى حولها شيئًا من التساؤلات والتأملات؛ ذلك أن الرسالة تطرح للمرة الأولى- من خلال تحليل شامل كامل- مسائل أساسية تمس مستقبل الفكر العربي انطلاقًا من بنيته الموروثة، فهي تطرح ذلك التساؤل الحائر عما نشهده اليوم من عقم في الحياة العربية في شتى مجالاتها، وأسباب ذلك العقم وأصوله.

والواقع أن أطروحة «الثابت والمتحول» لأدونيس تنطلق من مركب سهل صعب يغري بالركوب رغم ما فيه من مزالق ومخاطر، ونعني بذلك المركب السهل الممتنع، مركب التراث العربي، التراث الذي اتخذ منه أدونيس موقفًا بعد طول سراح ورواح فيما كتبه أسلافنا. غير أن النقاد العرب قد اختلفوا في حيثيات هذا الموقف الأدونيسي من التراث، إذ ثمة شبه إجماع بين النقاد على رفض أدونيس للماضي التليد. فلم يكتفوا بذلك فقد واصلوا مشوارهم النقدي إلى حد التهجم والتنكيل والطعن في ذلك الموقف، ثم نتابع الرحلة ـ تفاصيل هذه الرحلة النقدية ـ في الفقرات التالية من هذا المقال:

لقد كتب محمد دكروب مقالًا بعنوان «الشعر والثورة» المنشور في مجلة آداب مايو سنة(١٩٧٠م)، وفيه يصرح الناقد برفض أدونيس للماضي جملة وتفصيلًا[1]. والتهمة نفسها يكررها هاني الراهب في مقال له بعنوان«قول على أقوال أدونيس» فهذه التهمة فحواها أن أدونيس كان يدعو إلى نبذ الماضي جملة وتفصيلاً، «والتخلي

عن تراثنا وشخصيتنا»[٢]. ويبلغ التهجم إلى أقصى ذروته في المقال الذي كتبه جهاد فاضل، فأدونيس حسب ما يدَّعي الناقد في أطروحته«الثابت والمتحول» لا يطرح نفسه كمجرد ناقد أدبي، إنه يرصد الإبداع عند العرب بنظر موضوعي بارد، فهو«الباحث المغرض الذي يمكنك، بأي معيار نظرت، أن تستبعد العوامل الذاتية من بحثه الذي يكاد يقول لك في كل صفحة أنه ليس فقط غير محب لهذا التراث، بل حاقد عليه، ومزدر له..ومنتصر لكل من حمل معولًا لهدم كل أصل من أصول هذا التراث، بل هو أكثر من ذلك كائد للعرب كعنصر وجنس، نظرته إليهم مستقاة من القاموس النازي الذي قرأه أدونيس في الأربعينات لا من أي قاموس أخر»[٣].

وفي موضع أخر يتعرض جهاد فاضل لمواقف أدونيس من الدين والإنسان العربي والشاعر المسلم والتراث والحضارة العربية. أدونيس حسب ما يرى الناقد يعتبر الدين عائقًا أمام نهضة العرب، والعربي في «صدمة الحداثة» شخص ماضوي يستخدم موروثه لكي يفهم كل شيء، وما يتناقض مع هذا الموروث لا يكون جديرًا بأن يعطى أية قيمة. ثم يتحدث عن الشاعر المسلم عند أدونيس وكأن أدونيس مستشرق من لندن[٤]، وما ينته به جهاد فاضل هو أن أدونيس« ينفض يده من التاريخ العربي وكأنه ليس تاريخه، إنه لا ينتسب إليه، بل إلى كل خارج عليه فيعتبره وحده هو المبدع وهو المتحول وينفض يده من الخط العام للتراث العربي الذي يعتبره هو موميائيًا جامدًا...»[٥].

ويقر جهاد فاضل بتهجم أدونيس على الحضارة العربية الإسلامية حينما اعتبرها«قائمة على الاستعادة وطلب السلامة والنجاة، في حين أن الحضارة الغربية قائمة على طلب المغامرة والاكتشاف»[٦]. إن هذا الوصف الذي يضفيه أدونيس على الحضارة العربية يبدو في منظور جهاد فاضل في غير محله، بل إن أدونيس«لم يصل إلى هذه الأحكام عن طريق العقل البارد بل عن طريق الهوى الجامح. إنها تخيلات العزلة عن مجرى التاريخ ولا علاقة لها بالتحليل الموضوعي»[٧].

وينتقد الناقد مفهوم أدونيس للحداثة فيقول«الحداثة عند أدونيس موقف كيدي من التراث العربي، لا موقف إبداعي في أصيل. أي إبداع وأي خلق وأي فن والكاتب يخجل من وجه أمته ومن خصائصها ومن جذورها؟. أي حداثة يمكن أن تولدها حالة استلاب روحي، واغتراب كامل عن الجذور؟ ومتى كانت الحضارة أخذًا بدون عطاء؟»[٨].

وناقد آخر هو عبد الحميد جيده، يناقش مفاهيم أدونيس للشعر، فيعرج إلى مفهومه للكتابة وما أجراه من موازنات بين القصيدة العربية القديمة والشعر الجديد، فيستنتج من أقوال أدونيس دعوته لتجاوز الموروث شكلاً ومضمونًا[٩]، والواقع أن أدونيس يبين موقفه من التراث في عدم تجاوزه على الإطلاق«إن تجاوز الماضي لا يعني تجاوزه على الإطلاق، وإنما يعني تجاوزًا لأشكاله ومواقفه ومفهوماته وقيمه التي نشأت كتعبير تاريخي عن الحالات والأوضاع الروحية والثقافية والإنسانية الماضية، التي يتوجب اليوم أن يزول فعلها بزوال الظروف، التي كانت سببًا في نشوئها. فلم يعد الشاعر العربي ينظر إلى الماضي كنموذج للكمال، أو كقدسية مطلقة صار الماضي يهمه بقدر ما يدعوه إلى الحوار معه»[١٠]، وكل ذلك في منظور نبيل سليمان النقدي «لا غبار عليه، وإن كان المرء يطمح أن يلتفت في تحديد التراث إلى الجوانب المادية لا الفكرية وحسب. بيد أن هذا التصوير لواقع موقف الشاعر العربي من التراث غير صحيح بمثل هذه العمومية التي أطلقها أدونيس، فهو نفسه يأخذ قبل ذلك على هذا الشاعر نسخ القديم وتكراره، ويؤكد أن لا شعرًا عربيًّا مطلق، ولا شاعرًا كذلك، فثمة شعر عربي قديم، وأخر جديد وثالث معاصر، بحسب أدونيس، فلم ذاك الخلط والتقسيم إذا...»[١١].

يمثل هذا النص نقد ضمني يوجهه نبيل سليمان لموقف أدونيس من التراث، ونص أدونيس السالف الذكر يمثل في نظرنا خطوة أولى للتخفيف من تهجم النقاد عليه وعلى موقفه من التراث، وسنفصل الحديث في حيثيات هذا الموقف فيما بعد.

إن ما ادعاه نبيل سليمان في تهجمه على تصنيفات أدونيس للشعر، والخلط الذي قال به الناقد يأتي من عدم إدراكه لحيثيات ذلك الموقف الأدونيسي وما يتخلله من مفاهيم استقرت في ضمير الذاكرة الجماعية، تحت ستار تعصب أعمى لمستودع التراث.

ولم يكتف نبيل سليمان بهذا القدر من التهجم المفرط على كتابات أدونيس النقدية، بل امتدت أذرع الأخطبوط الهائل هذه المرة لتطعن في منظور القراءة الأدونيسية للتاريخ الأدبي والفكري والنقدي. وإذا كان أدونيس قد أعاد قراءة ذلك كله في ضوء مفهوم الحداثة، فإن هذه القراءة«...تجير التاريخ لصالح النظرة الأحادية المتحكمة بصاحبها، فتتركه يتحمل ويصطنع، لينجح في قسر الأفكار والأشخاص والوقائع على الانتظام وفق المنظور الحداثي»[١٢].

ويطرح حسن الأمراني سؤالًا مؤداه: كيف نتعامل مع التراث؟ ليزج بأدونيس في جوابه عما هو استفهام؛ إذ يتعرض إلى المنظور العام الذي حاكم أدونيس بموجبه التراث. فيقر«بأن محاكمة (أدونيس) للتراث الشعري – والثقافة بموجب عام- تقوم على أساس المضمون؛ أي الوظيفة والغاية»[١٣]، متناسيًا البعد الثالث الذي حاكم بموجبه ناقدنا الموروث الشعري، نكرر فنقول إنها الرؤيا الشعرية بمحدداتها وعلائقها. ومن هذه الزاوية كان دأب أدونيس لحصاد ما تيسر من ينابيع الشعر العربي وعيونه الزاهية، وذلك في ديوان الشعر العربي بأجزائه الثلاثة. هذا وقد تناسى الأمراني على الفور معارضة أدونيس الحادة للمضمون بدليل أننا ألفيناه يعلن أن الإصرار على أولية الموضوع؛ أي على وظيفة الشعر، إنما هو نفي للشعر[١٤].

وناقد آخر هو نصر حامد أبو زيد درس« رؤيا أدونيس في الثابت والمتحول للتراث» مؤكدًا بأن موقف أدونيس من التراث«يختلف - جوهريًا- عن الموقف الذي يؤمن بجدلية العلاقة بين الماضي والحاضر. إن موقف أدونيس – رغم ديناميكيته الظاهرة- ما زال يتعامل مع التراث باعتباره وجودًا في الماضي. إنه يفهمه

لكي يهدمه...» [١٥]، إنه - والقول للناقد- «...يؤمن على النقيض أن علاقته بالتراث علاقة انفصال كاملة، إنه يسلم بأثر التراث وينفيه في الوقت نفسه، وهو لذلك يدين أي ارتباط بالتراث»[١٦]، فرؤية أدونيس للتراث كما يرى نصر حامد أبو زيد تقوم على الهدم والانفصال بين الماضي والحاضر، انفصالًا يتجاهل العلاقة الجدلية بينهما، ومن ثم تجاهل لوعى التمايز الوجودي والتداخل المعرفي بينهما.

وإذا أمعنا النظر في النصوص السالفة الذكر، فإننا نخرج بالتفصيلات التالية:

- دعوة أدونيس للتخلي عن تراثنا وشخصيتنا.
- أدونيس إنسان حاقد وناقم على التراث العربي والحضارة العربية الإسلامية.
- أدونيس يجور على التاريخ لصالح النظرة الأحادية ذات المنظور الحداثي في قراءة التراث وتجاوزه شكلاً ومضمونًا.
- تقوم رؤية أدونيس للتراث على الهدم وعدم إدراك العلاقة الجدلية بين الماضي والحاضر (الانفصال).

والواقع أن أدونيس لم يقف مكتوف الأيدي أمام هذه التهم النقدية، فقد رد عن تهمة رفض الماضي بقوله: «إن شاعرًا يصرف عشر سنوات في دراسة ماضينا الشعري العربي ويقومه بنظرة جديدة ويقدمه إلى القارئ في ضوء هذه النظرة، لا يمكن أن يقال عنه أنه يرفض الماضي رفضًا تامًا. أما الذين يصرون على إشاعة هذا القول فأكتفي بأن أتوجه إليهم برجاء حار هو أن يقرؤوا قبل أن يحكموا. "إن رفض الماضي رفضًا تامًا" لا يمكن أن يقال عن أي إنسان مهما بلغت درجة رفضه؛ ذلك لأن رفض الماضي رفضًا تامًا عبارة متناقضة جوهريًّا، عدا أن ذلك مستحيل»[١٧].

هذا هو النقد الذي وجهه أدونيس لمحمد دكروب الذي تطاول عليه في المقال المشار إليه سابقًا.

وفي موضع أخر يرد أدونيس على تهمة الانفصال عن الماضي مستغربًا وغياهب الحيرة تزداد استغرابًا من شخص لصديقه هاني الراهب الذي زعم بأن أدونيس دعا ويدعو إلى نبذ الماضي جملة وتفصيلاً، والتخلي عن تراثنا وشخصيتنا. ويزداد استغرابًا من الزعم الذي يدعيه هاني الراهب ألا وهو الاستناد إلى«أطروحة الدكتوراه»، يقول أدونيس منتقدًا: « ولا بد لكل من يريد حقًا أن يعرف، من أن يلاحظ، على الأقل، أن هذه الأطروحة تبحث في التحول وفي الإبداع، في التراث العربي، وأنها تؤكد الجانب الأول وتدافع عنه، وترى فيه القوى الحية الخلاقة في تراثنا العربي. ونِصف الجزء الذي صدر منها، أو أكثر، خاصًا بهذا الجانب الإبداعي. كيف يقول، إذن، صديقي هاني الراهب، شأن بعضهم، إنني أنبذ الماضي جملة وتفصيلاً؟»[١٨].

ويوضح أدونيس فكرة الانفصال عن الماضي ردًا على هاني الراهب ومن حذا حذوه حيث يقول: «بلى، إنني أدعو إلى نوع من الانفصال عن الماضي متمثلًا بما أسميه "البنية الماضوية بمختلف أشكالها وأبعادها" وما أسميه أيضًا بالثبات والإبداع، والنمطية والمذهبية والسلفية. فأنا أدعو، ولا أتردد في ذلك ولن أتردد...باختصار، أطالب بالانفصال على الموروث الذي استنفذ ولم يعد يختزن أية طاقة للإجابة عن أية مشكلة عميقة نجابهها اليوم، أو على مساعدتنا في تلمس طريقنا نحو المستقبل. أطالب بالانفصال عن الرماد، لا عن اللهب. مرة ثانية، هذا شيء، ونبذ الماضي جملة وتفصيلًا شيء آخر»[١٩].

نلتمس في النصين السابقين دفاع أدونيس، والدفاع هاهنا بمعنى التوضيح والإفصاح عن موقفه ومفهومه للتراث ردًا على تلك الزعانف الموضوعة، فالتراث عنده ليس الكتب والمحفوظات والإنجازات التي نرثها عن الماضي، وإنما هو القوى الحية التي تدفعنا باتجاه المستقبل. والمهم في التراث (الماضي) هو تلك العناصر التي تحتفظ بالقدرة على إضاءة الحاضر والمستقبل. والعودة إلى التراث؛ إذن هي عودة للعناصر الثورية فيه.

بعد هذه الجولة السريعة في كتابات النقاد المعارضين وما يتخللها من توضيحات لناقدنا أدونيس، الذي أبى سلطنة ذلك التهجم، والتعصب الأعمى لمستودع التراث، نقول وبكل ارتياح: بأن الذين يقولون إن أدونيس يرفض التراث جملة وتفصيلًا يظلمونه، ومن حقه أن يغضب ويدافع حينما توجه له مثل هذه التهمة.

إن المجددين في تراثنا، كأبي تمام وأضرابه «عبروا بطريقة جديدة، دون أن يقطعوا اتصالهم بجوهر الماضي فمثل هذا الانقطاع يقتل الشعر، بل إنه مستحيل لأن الشعر يحيا، كذلك بقوة الدفع في التراث»[٢٠]، ولذلك فإن أدونيس لا يطالب«بضرورة الخروج كليًا عن الماضي، فمثل هذا الخروج مستحيل لأنه خروج عن التاريخ، فنحن لا نبدع المستقبل إلا في لحظة تتصل بالأمس والآن، وإذا حاد الآن عن الأمس فلغرض واحد هو الاتجاه نحو المستقبل»[٢١].

ومن الدال جدًّا أن أشير في هذا السياق إلى ضرورة فهم هذا القول على ظاهره، دونما حاجة إلى تأويل بعيد، فكل ما هو موجود بالوراثة، بالتقليد، بالعادة يجب أن يعاد فيه النظر، ولا يعنى إعادة النظر في التراث كما يفهم من النص. إن القضية أساسًا مرتبطة بصلة الثابت بالمتحول، وما يتولد عن تلك الصلة، وفي هذا المقام يقول:«إن مسألة الصلة بالماضي لا تبحث من زاوية الرفض أو القبول، بل من زاوية فهم هذه الصلة ووجهة النظر في تحديد طبيعة هذه الصلة، وتحديد ما نتصل به وما لا نتصل»[٢٢].

أدونيس لم ينكر العلاقة الجدلية بين الماضي والحاضر وإنما أنكر فكرة التعصب للماضي وفي هذا المنعطف تجده يقول:«...ثمة أشياء لا بد أولاً من إيضاحها فمن يعيد تقويم الثقافة العربية، اليوم، وبخاصة في ماضيها، هو كمن يسير في أرض ملغومة: يجد نفسه محاصرًا بالمسلمات، بالقناعات التي لا تتزحزح، بالانحيازات، بالأحكام المسبقة، وهذه كلها تتناسل في الممارسة، شكوكًا واتهامات وأنواعًا قاتلة من التعصب، فليس الماضي هو الذي يسود الحاضر، بقدر ما تسوده صورة مظلمة

تتكون، باسم هذا الماضي، لذلك ليس الماضي هو ما يجب أن نبدأ بالكلام عليه، وإنما يجب أولًا الكلام على تلك الصورة السائدة»[٢٣]، ويقول أيضًا «علاقة الحاضر بمملكة التراث(الماضي) إنها«علاقة تابع بمتبوع»، إنها علاقة محاكمة، يدان فيها الحاضر باستمرار، ويدان سلفًا...»[٢٤].

إن أدونيس يرفض أن يمثل تراثنا نوعًا من الكتابة الأولى، كما يرفض أيضًا أن تكون كل كتابة يكتبها الإنسان شرحًا أو تفسيرًا للكتابة الأولى، ولكنه لا يرفض الصلة بالماضي بتاتًا أليس هو القائل:«من البداهة أن الشاعر العربي المعاصر لا يكتب في فراغ بل يكتب ووراءه الماضي وأمامه المستقبل»[٢٥].

المسألة في تصور أدونيس هي مسألة حاضر قبل أن تكون مسألة ماض، ذلك لأن الفكر الحداثي الأصيل يسعى إلى تجاوز البنى الجاهزة للمعرفي الماضوي، ليس من أجل تعويضه بالمعرفي الحداثوي، وإنما ضمن إنشاء علائق جديدة تصل الماضي بالحاضر عبر جدل كينوني مستمر: وحين نقول الماضي، فإننا نعنى، تحديدًا، تجاوز تصورات معينة للماضي، أو لفهم معين، أو لبنى تعبيرية معينة، أو لمعايير وقيم معينة، ولا يعنى إطلاقًا أننا ننفك وننفصل عنه، كأنه أصبح عضوا ميتًا زال وتلاشى. فهذا محال عدا أن القول به جهل كامل، لا بالماضي وحده، بل أيضًا بطبيعة الإنسان، وطبيعة الإبداع[٢٦]، على اعتبار أن الماضي ليس دائمًا في حكم«الذي كان» بقدر ما هو امتداد دلالي لما يجب أن يكون: واللقاء الذي يقيمه أدونيس بين الماضي والحاضر هو جعل الماضي (التاريخ) منعكسًا في مرآة الحاضر، وفي جعل الحاضر منعكسًا في مرآة الماضي[٢٧]، فأدونيس ينظر للكلام في الماضي، وكأنه يريد وصف الكلام في الحاضر بكلمة أخرى يريد استلهام الماضي في وصف الحاضر، إنه استلهام لا يقوم على تمجيد آلي للماضي، وإنما يقوم على نقده والاستبصار فيه واستخلاص المعالم التي يمكن أن يفيد منها وصف الحاضر.

قلنا منذ قليل أن أدونيس أنكر التعصب لمستودع الماضي، وقد تمثل هذا الموقف

ناقد أخر هو على حرب الذي صرح في وجه أولئك الذين تعصبوا تعصبًا أعمى لماضينا السحيق يقول - والقول للناقد-: «أما أولئك الذين ينشغلون، بمعرفة التراث فلن يعرفوه حق معرفته، لأن معرفته الموجودة هي شرط لمعرفة التراث، ولهذا فالتراث في نظري لا يطلب لذاته بل بوصفه معطى يمكن الانشغال عليه، وتحويله من معرفة جامدة ميتة إلى معرفة حية فعالة...وأما التمسك الأعمى به فلا ينتج سوى الجهل»[٢٨].

هذا الموقف لعلى حرب يفهم التراث على أنه ليس مجرد دعوة أو رسالة نبشر بها، ولا هو مجرد استعراض لما يكتنزه الماضي: التراث في تصوره هو شيء نصنعه ولا يصنعنا.

ونجد أدونيس يرفض أن يكون الشعر بوقًا للسلطة أو النظام، لأن الموقف من التراث- حسب أدونيس- يجب أن يكون شاملًا وجذريًا، وهذا الموقف«ثوري بالضرورة. والثورة انقلاب كلي: هدم النظام (القديم) ببناه التحتية والفوقية، وإقامة نظام أخر (جديد) » [٢٩]، وهذا من متطلبات الموقف الحداثي الذي يتأسس فيه الفكر على التساؤل، وقوة البحث والتوغل في اكتشاف الطاقات والقدرات الإنسانية الخفية، والثقافة الحقة هي الثقافة الثورية، لا ثقافة النظام، إنها ثقافة تبحث دومًا عن المستقبل، سعيًا منها لبناء الذات العربية الجديدة في ظل مفاهيم الرفض والتجاوز بعد استلهام المرفوض والمتجاوز.

ما تقدم من نصوص وشواهد يجعلنا نعيش مفارقة عجيبة بين ما ادعاه النقاد وبين ما أقره أدونيس في ما يتعلق بموقفه من التراث، وأكثر ما تزداد هذه المفارقة عمقًا حينما يتصل الأمر بنمط القراءة الأدونيسية للتراث-كما لاحظنا سابقًا- في طروحات جهاد فاضل ونبيل سليمان. وقد تناسيا أو بالأحرى تجاهلا نمط القراءة الحداثية الذي طرحه أدونيس في «الثابت والمتحول» سنة(١٩٧٣م)، والقراءة الحداثية هي قراءة انتقائية وتثويرية؛ لأن منطلقها الفعّالية اللغوية للأدب والتسليم

بقدر هذه الفعّالية على تحطيم القوالب المتحجرة الثابتة لمنظومات القيم البالية في العالم.

إن هذا الهدف يجعلها منحازة إلى(التجاوز) وإلى(الإبداع) دون(الاتباع)، ومن ثم فإنها تضع التراث في مناخ الأسئلة التي تبرز الثابت لتنفيه، وتؤكد الإبداع لتنطلق منه، محطمة بذلك سطوة «التناقض مع الحداثة» من حيث هي قرينة«الشك والتجريب وحرية البحث المطلق والمغامرة في اكتشاف المجهول وقبوله»[٣٠]، وذلك انطلاقًا من إطار مرجعي مفاده أن «أصل الثقافة العربية» لن يحمل في ذاته حيوية التجاوز إلا إذا تخلص«من البنى القديمة »، وبواسطة آلة من داخل التراث نفسه.

إن نمط القراءة الحداثية للتراث في ظل طروحات أدونيس إنما هو تفكيك لرسالة قائمة بنفسها، وما التراث إلا موجود لغوى بذاته باعتباره كتلة من الدوال المتراصفة، وإعادة قراءته هي تجديد لتفكيك رسالة عبر الزمن، وهي بذلك إثبات لديمومة وجودة ومعاصرته وهذا ما نادى به محمد عابد الجابري حينما قال«... نقد التراث هو تأسيس للحداثة، والحداثة هي رؤيا تتيح تأسيس التراث مما يجعله معاصرًا لنفسه، منسجمًا في بنية عالمه الداخلي ومعاصرًا لمنتجيه الأصليين»[٣١].

وينتهي الباحث محمد الطيب قويدري بعد تحليله لموقف أدونيس من التراث، إلى أن هذا الموقف«يقوم على نظرة حداثية تسعى إلى استيعاب التاريخ العربي الإسلامي ضمن إطار النظري، فتحاول الإطاحة به وببنيته الكلية، وصفًا، وتقويمًا..لإعادة تنظيم صورة التاريخ والتراث معًا في الوعي العربي المعاصر»[٣٢].

ذلك هو المنظور الذي قرأ بموجبه أدونيس مورثنا الشعري، وقد أثمرت هذه القراءة الحداثية للتراث فكرة تجاوز أدونيس لبعض المفاهيم التقليدية، «فلم يعد ما يسمى«عصر النهضة» في الخروج إلى فضاء الشعر الحقيقي. كان على العكس، من الناحية الشعرية، استمرار للانحطاط..يبدو عصر الانحطاط بالنسبة إليه عصرًا ذهبيًّا فإن «عصر النهضة» أكثر إغراقًا في التبعية، وفي التقليد، وبهذا يبدو عصر

الانحطاط أكثر حداثة وحيوية»[٣٣]، فمفهوم النهضة يرتبط إذن ارتباطًا جذريًّا بمفهوم التغيير. فحين نقول نهضة، نعنى، بالضرورة انتقالًا من وضع سابق أو ماض، إلى وضع حاضر، مغاير، ونعنى بالضرورة أن الوضع الجديد متقدم، نوعيًّا، في حركيته العامة، على الوضع الماضي. لذلك لا يصح أن يكون في مفهوم النهضة ما يمكن أن نشير إلى «التقليد» أو «الإحياء»؛ لأن فيهما تراجعًا؛ أي تبنيًّا لأشكال حياتية – ثقافية – نشأت في عصر مضى، لتجيب عن مشكلات لم تعد هى نفسها المشكلات الراهنة.

إن الشاعر الذي يحيي أشكال التعبير القديمة، لا يصدر عن موقف جديد وإنما يصدر عن الفكر والموقف القديمين اللذين أنتجا تلك الأشكال. لا يعنى ذلك أن الشعر الجديد يبدأ من شيء، وأن على الشاعر ليكون جديدًا أن يستأصل جذوره الماضية، وينفصل عن التراث. وإنما يعني أنه إذا كان لا بد من العودة إلى القديم فلا يجوز أن تكون عودة إلى أشكاله، بل إلى الدفعة الحية التي ولدت هذه الأشكال.

إن الارتباط بالشعر القديم لا يكون، تبعًا لذلك، ارتباطًا بطرائق تعبيره، بل بالروح العميقة التي حركته. هذا تحليلنا لنمط القراءة الأدونيسية وما انتهت إليه من نتائج، وهو النمط الذي كاد أن يغدو نسيا منسيا في طروحات النقاد.

وإذا كنا قد رفضنا مواقف النقاد من موقف أدونيس من التراث بدعوى أنه لم يرفض التراث جملة وتفصيلًا، وبالمنطق نفسه فإننا لا نطمئن لتلك الطعنات الموجهة للمنظور الذي قرأ بموجبه مورثنا الشعري، وإذا لاحظنا في ذلك تهجمًا مفرطًا فإننا لا نتفق مع أدونيس في موقفه من الحضارة العربية الإسلامية حين ألبسها حلة التقليد، فهو بهذا الموقف يكون قد وقع في أخطاء تاريخية كبيرة ترتب عليها سوء فهمه للأحداث والحركات. أقول: إن هذا الكلام عن الحضارة الإسلامية ينطوي على مغالطات تاريخية أو تجاهل للحقيقة، فالقول بعدم انفتاح هذه الحضارة على الحضارات الأخرى هو تجاهل آخر لأوروبا التي عاشت أكثر من ثلاثة قرون على فهم ابن رشد لأرسطو، وإنه لولا العرب لبقيت معظم حضارات العالم القديم

فخارًا أو حجرًا، بل أننا نجد في كتاب«حوار الحضارات» للأديب الفرنسي المعاصر روجي غارودي ردًا ضمنيًّا على هذا الموقف العدائي من الحضارة العربية الإسلامية حيث يقول: «لنرجع إلى التاريخ لما هب الإعصار القادم من الشرق وانتشر بمثل هذه السرعة العظمى من بحر الصين إلى المحيط الأطلسي...وبتأثير العرب أيضًا ظهرت في إسبانيا البلديات المزودة بميزانية مستقلة، كما ظهرت مؤسسة القضاء الانتخابية، ويوضح الكاتب (بلاسكوبياتر) في كتابه «في ظل الكاتدرائية» أن انتعاش إسبانيا لم يأت من الشمال حيث القبائل البربرية، بل من الجنوب مع العرب الغزاة. وهو يقول في حديثه عن الحضارة العربية: ما كادت تنشأ حتى استطاعت أن تمثل أفضل ما في اليهودية وفي العالم البيزنطي، وقد جلبت معها التقليد الهندي العريق، وآثار الفرس وكثيرًا من الأمور المستمدة من الصين الغامضة...وإنما يدين الغرب بعصر النهضة«للغزو» العربي الذي عرف كيف يخلق الشروط الفكرية اللازمة لتفتحه. وهذا «الغزو» قد جعل من الممكن أولاً، انبثاق الثقافات القديمة بدءا من الثقافة الهلينية. وقد ترجم العرب(أرسطو) و(جالينوس) و(أفلاطون) و(بطليموس) و(إقليدس) و(أرخميدس) »[٣٤].

هذا وقد فرضت الثقافة العربية الإسلامية نفسها على العالم في عصرها، بصفتها ثقافة عالمية، ففي هذه الرقعة الجغرافية الممتدة من الأندلس إلى الهند ازدهرت الآداب والفنون والثقافات الإسلامية، ولا ينكر قوة إشعاعها أو تأثيرها في الأمم المختلفة إلا جاحد يريد طمس الحقيقة. وتستمد العالمية الإسلامية تصورها من الدين الإسلامي الحنيف، ومن التراث الأدبي العربي، ومن آداب الشعوب التي احتكوا بها. وتجسدت هذه العالمية والعبقرية الإسلامية التي هى أشبه ما تكون بشجرة طيبة.

لقد استطاع المسلمون تحقيق نوع من التوازن بين الأصالة والتفتح، بين المحلية والعالمية. وتم هذا الاحتكاك عندما كان المسلمون في مركز قوة، ولذلك تحكموا في المؤثرات الأجنبية؛ لأنهم سادة الموقف، ومبدعون لا مستهلكون.

ولم يتوقف المسلمون عند هذا الحد، بل ورثوا مناهج الهند وفارس والروم واستثمروها في البحث العلمي ووضعوها في إبداعاتهم المختلفة، ثم أضافوا إليها وحسنوها بحيث تتماشى وطبيعة الموضوعات التي يبحثون فيها، فكانت هناك مناهج عملية دقيقة مثل: المناهج التحليلية، التركيبية، الوظيفية، الوصفية، الإحصائية، التاريخية، المقارنة، وغير ذلك من المناهج التي تستعين بالتجربة والملاحظة.

ولقد تحكم المسلمون تحكمًا كليًّا في هذه المؤثرات، وقد تجلى ذلك في صياغتهم لها صياغة جديدة بحيث طبعوها بطابعهم الخاص، فأصبحت جزءًا لا يتجزأ من كيانهم، ويصعب الفصل بين المكونات الوافدة والمكونات الذاتية، لأن عملية التفاعل عملية عضوية. وابتعدت هذه المؤثرات عن أصلها وأصبحت ملكًا للمسلمين بفضل العبقرية الإسلامية، وتجاوز المسلمون كل المستويات ليصلوا في نهاية الأمر إلى بناء صرح ثقافي حضاري أصيل.

وقبل العالمية الأدبية الأوروبية (عالمية عصر النهضة، والفترة الكلاسيكية وعصر التنوير والعصور المتأخرة) ازدهرت العالمية الأدبية الإسلامية وأثرت أيما تأثير في الشرق والغرب (تأثر الغرب بالمعري وابن طفيل، وابن رشد وابن سينا...إلخ)، كما اهتم المسلمون بالتنظير للأدب(نثرًا وشعرًا)، فالتراث العربي يزخر بالكتب التنظيرية مثل: كتاب«الشعر والشعراء» لابن قتيبة، وكتاب «الصناعتين» لأبي هلال العسكري وكتب الجاحظ والجرجاني وغيرهم.

إن كثيرًا من القضايا الأدبية والنقدية التي اهتمت بها المدارس الحديثة(من توليدية وشكلانية، وبناوية، ووظيفية...إلخ) نجد لها جذورًا لدى المسلمين وكل حضارة تشكل حلقة في هذه السلسلة الطويلة المتصلة الحلقات، فماذا يعاب عن الحضارة الإسلامية إذن؟، أيعاب عنها أنها كانت في يوم من الأيام مركز إشعاع ثقافي وفكري؟، أم يعاب عنها أنها كانت مهدًا وجد فيه الآخر عونًا للسير نحو آفاق لم يألفها من قبل؟ فكيف يمكن وصفها بالتقليد إذن؟!! .

وبعد: إنها لمحات خاطفة وصور قليلة في درب طويل هيهات أن ندعي الكشف عن مزالقه كلها.أدونيس كما رأينا يطرح مسالة جوهرية في حياتنا، لها أصداؤها الهامة في حاضرنا ومستقبلنا، إنها مسألة البحث عن مخرج من العقم الذي ينتاب حياتنا الحاضرة. ولكن السؤال الكبير هل تنطلق قوى الإبداع عندنا سهلة هينة، عن طريق ركوب هذا المركب السهل، بل هذا المركب «الماضوي»، حين نرد كل شيء إلى عقم التراث؟ هل الذي يرزح فوق كاهل الإبداع عندنا ويقيده، هو الماضي الذي نحاول أن نحمله كل آفاتنا، أم أن عقمنا يتمثل في الحاضر – ووراءه عوامل عديدة– هو الذي يدفعنا إلى أن ننظر إلى التراث نظرة عقيمة؟.

تراثنا استطاع أن يكون متجددًا، عندما كانت قوى الخلق حية يقظة، ويستطيع أن يتجدد اليوم عندما تستيقظ هذه القوى من جديد، وهى القوى التي طالما أنعتها أدونيس بالروح العميق، لذلك نجده يشتغل على التراث بإقامة علاقة نقدية خلاقة ومنتجة مع التراث، ومن يفعل ذلك حداثي بلا ريب، كمن يقرأ المتنبي اليوم لا لكي يكتب مثله، بل لكي يتخذ من كلامه أكمامًا لكلام آخر مختلف. وفي المقابل ثمة من يتعلق بحداثته تعلقًا تقليديًّا، ومن يفعل ذلك يكون سلفيًّا، كما يقرأ السيّاب. فلا يتوهم الحداثي، أنه يستطيع الانقطاع عن أصوله؛ إذ بذلك يمارس أصولية رديئة، وليس باستطاعة الأصولي القفز فوق ما يحدث، إذ بذلك يمارس حداثة على النحو الأسود، والتراث ليس عقبة في طريق التجديد، بل غياب التجديد هو العقبة في طريق فهم التراث فهما حيًّا متجددًا، وتراثنا عندما حملته عصور الظلام وضمته العقول المجدبة الفقيرة، جف نسغه، وعندما حملته من قبل عصور النهضة والنور اغتنى وتفتح.

مسألة العقم في حياتنا إذن ينبغي أن نعاجلها أولاً. وقوى الخلق والإبداع ينبغي أن نطلقها، وعند ذلك تنضوي هذه القوى بما علق بالتراث من زيف وضيق وجدب، وإطلاق قوى الخلق والإبداع عندنا في القرن العشرين وتباشير القرن الواحد والعشرين لها من وسائل العلم الحديث ألف سبيل وسبيل.

والواقع أن تراثنا ليس عبئًا علينا بقدر ما نحن عبء عليه، وإذا ما أردنا بناء مجتمعًا عصريًا حديثًا والدخول إلى القرن العشرين واستشراف القرن الواحد والعشرين، سوف نجد في التراث سندًا وعونًا وسوف يضاء التراث الأصيل بخلقنا الجديد، وما الحضارة العلمية التكنولوجية التي علينا أن نسعى إليها إلا تراثنا الأصيل وبضاعتنا ردت إلينا، وهل حال استمساك اليابان بتراثها دون دخولها عصر الصناعة وعصر الثورة العلمية والتكنولوجية، أم كان على عكس ذلك من أهم العوامل التي ساعدت على تلك الوثبة الجبارة التي حققتها؟.

نقول هذا كله ونحن ندرك أن أدونيس حين حمل التراث ما حمل لم يكن يعني به التراث كله، بل كان يعني - في أعماق رأيه- تلك الصورة المتداعية المظلمة التي لبسها أحيانا والتي سار إليها خاصة في عصور الانحطاط، والتي ما تزال تجر أذيالها حتى اليوم ونحن معه في ذلك، ولكننا نرى أن انحطاط التراث نتيجة للعقم لا سببًا من مسبباته، وأن دخول باب الإبداع - بوسائل العصر الحديث- يعيد التراث مبدعًا خلاقًا.

هوامش الفصل الأول

(١) ينظر: أدونيس: زمن الشعر، ص١٢٧.
(٢) ينظر: أدونيس: فاتحة لنهايات القرن، بيانات من أجل ثقافة عربية جديدة، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٨٠م، ص٣٠٢.
(٣) جهاد فاضل: صدمة الحداثة لأدونيس، صدمة لأصول البحث العلمي ولروح الحداثة، مجلة الفكر العربي، معهد الإنماء العربي، بيروت لبنان، ع٢، ١٥تموز(يوليو)، ١٥آب(أغسطس)، ١٩٧٨م، ص٢٩١.
(٤) (٥) (٦) المرجع نفسه، ص٢٩٥.
(٧) (٨) المرجع نفسه، ص٢٩٦.
(٩) عبد الحميد جيده: الاتجاهات الجديدة في الشعر العربي المعاصر، مؤسسة نوفل، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٠م، ص٤٦.
(١٠) أدونيس: زمن الشعر، ص٦٠.
(١١) نبيل سليمان: مساهمة في نقد النقد الأدبي، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٨٣م، ص١٨.
(١٢) المرجع نفسه، ص٤٢.
(١٣) حسن الأمراني: الثابت والمتحول في الثابت والمتحول، مجلة المشكاة، المغرب، ع١٠، س٣، ١٩٨٩م، ص٩.
(١٤) أدونيس: زمن الشعر، ص٧٢.
(١٥) نصر حامد أبو زيد: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط٣، ١٩٩٤م، ص٢٣٢.
(١٦) المرجع نفسه، ص٢٣٣.
(١٧) أدونيس: زمن الشعر، ص١٢٧.
(١٨) أدونيس: فاتحة لنهايات القرن، ص ص٣٠٦-٣٠٧.
(١٩) المصدر نفسه، ص٣٠٧.
(٢٠) أدونيس: زمن الشعر، ص٣٥.

(٢١) المصدر نفسه، ص٥٩.
(٢٢) المصدر نفسه، ص١٢٧.
(٢٣) أدونيس: الثابت والمتحول(صدمة الحداثة)، دار العودة، بيروت، ط٤، ١٩٨٣م، ص٢٧٥.
(٢٤) المصدر نفسه، ص٢٧٦.
(٢٥) أدونيس: زمن الشعر، ص٤٥.
(٢٦) أدونيس: كلام البدايات، دار الآداب، بيروت، ط١، ١٩٨٩م، ص١٤٤.
(٢٧) جودت فخر الدين: هاجس البحث والتأويل، التعبير عن الحداثة شعرا ونثرا، مجلة فصول(الأفق الأدونيسي)، القاهرة،ع، ١٩٩٨م، ص١٨٨.
(٢٨) على حرب: الممنوع والممتنع، نقد الذات المفكرة، الدار البيضاء، بيروت، الحمراء، ط١، ١٩٩٥م، ص٩٢.
(٢٩) أدونيس: فاتحة لنهايات القرن، ص٢٧٩.
(٣٠) أدونيس: الثابت والمتحول (الأصول)، دار العودة، بيروت، ط٤، ١٩٨٣م، ص٣١.
(٣١) ينظر:محمد عابد الجابري: التراث ومشكل المنهج، مجلة المستقبل العربي، ع٨٣، س٨، كانون٢، ١٩٨٦م، ص ص١٢-١٣.
(٣٢) محمد الطيب قويدري: الموقف النقدي لأدونيس من التراث(رسالة ماجستير)، معهد اللغة العربية وآدابها، جامعة الجزائر، ١٩٩٢م، ص ص٨٦-٨٧.
(٣٣) أدونيس: مقدمة للشعر العربي، دار العودة، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م، ص٧٦.
(٣٤) روجيه غارودي: حوار الحضارات، ترجمة عادل العوال، سلسلة زدني علمًا، عويدات، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م، ص ص١٠١-١٠٣.